

الدُّعاء مدرسة تربط الإنسان بالله والحياة



«الدُّعاء هو اللغة القريبة والبسيطة التي تربط الإنسان بخالقه، وتجعله يعيش عمق هذا الارتباط، وصفاء صورته ومعانيه، وعظمة دلالاته وأبعاده، بما ينعكس نفعاً للإنسان، وينمّي بالتالي روحه وأخلاقه، ويجعل من إيمانه شيئاً يتحرك في حياته الخاصة والعامّة، لا مجرد ألفاظٍ تدور مدار فمه، ويغرس الوعي فيه، ليعرف عن بصيرة كلِّ تجلّيات العقيدة والشريعة التي أنعم الله بهما عليه، ليكون المؤمن بالتالي عليهما.

من هنا، تأتي أهميّة الدُّعاء في أن يقف المرء وبحاسب نفسه، ويتأمّل في أوضاعه وعلاقاته مع ربّه، بالشكّل الذي يدعو إلى مراجعة كلّ حساباته، ويرتّب كلّ شؤونه مع ربّه، بما ينسجم مع رسالته ودوره، والله تعالى قريب منّا: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) (ق/16)، ويسمع دعاءنا واستغاثتنا المخلصة له، ويحضّنا على الإخلاص له، وعلى الدُّعاء وطلب الحاجة منه، فهو ربُّ الأرباب، وقاضي الحاجات، وسميع الدُّعاء. قال تعالى في محكم كتابه العزيز: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيَسْتَجِيبُوا لِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (البقرة/186)، وفي آيةٍ أُخرى: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنِّي عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) (غافر/60)، وهناك آية شريفة تبرز أهميّة الدُّعاء بقوة: (قُلْ مَا يَدْعُوا بِكُمْ مِمَّا يُعْبَدُونَ إِلَّا لِيُبَدِّلَ اللَّهُ وَكُفُّوا أَعْيُنَكُمْ عَنِ مَسْجِدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي هُمْ يُكْفَرُونَ) (الفرقان/77).

الدُّعاء تعبير أصيل عن ديمومة حاجة الإنسان إلى ربّه، وشعوره المسؤول بذلك، وليس مجرد كلام يُطلق.. فالدُّعاء هو التعبير الحيّ عن شعور الإنسان بحاجته الدائمة إلى الله في جميع أُموره،

واعترافه الخاص بصفة العبودية التي تشمل الإحساس بالارتباط العميق بالله والفناء فيه، بحيث لا يحسّ معه بوجوده، ولا يشعر بكيانه.

ومن البديهيّ أنّ الإيمان الحيّ لا يتحقّق بدون هذا الشعور وهذا الإحساس، إذ لا معنى للإيمان بالله إلا الإحساس بالقدرة الخالقة التي لا تقف عند حدّ، والقوّة المطلقة التي لا تنتهي إلى غاية، في مقابل عجز الإنسان وضعفه، الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً إلا بالله.

وفي ضوء هذا، فإنّ حاجتنا إلى الدُّعاء تتمثّل في حاجتنا إلى التعبير عن هذا الإيمان، والعمل على استمراره داخل النفس حيّاً نابضاً بالحياة، يجدّد للإنسان إيمانه، ويركّز ثقته بالله.. ولهذا، ورد في الحديث أنّ «الدُّعاء مخّ العبادة»، لأنّه التعبير الحيّ عن معنى العبودية والخشوع والخشوع الذي يتمثّل في العبادة. وبدونه، تصبح العبادة جسداً لا روح فيه، وبذلك، يخرج الدُّعاء عن أن يكون طقساً تقليدياً يمارسه الإنسان بدون فهمٍ أو وعي، بل بفعل العادة الدائبة.

وقيمة الدُّعاء في الإسلام، هي تربية الإنسان على المحافظة على شعوره الدائم بالحاجة إلى ربّه في جميع أوضاعه وحالاته، وتأسيس هذه القيمة في وجدانه وروحه وعقله، ليكون الإنسان الواعي المخلص لربّه.. فقيمة الدُّعاء في حياة الإنسان، لا تنطلق من شعوره بالحاجة الآنية المحدودة، بل تمتدّ لتشمل الشعور العميق بالصلة الروحية التي تشدّ الإنسان إلى ربّه في محبّة واطمئنان.

وتتمثّل الصحيفة السجادية للإمام عليّ بن الحسين زين العابدين (ع) في هذا المضمار، مدرسة بارزة ومتكاملة، تهدف إلى ربط الإنسان بالله والحياة، بالطريقة الحيوية العملية، وقد كانت غاية تلك المحاولة، أن تجعل من الدُّعاء مدرسة تربط الإنسان بالحياة، وتربط الحياة بالله، وتؤكد المفهوم الإسلامي الذي لا يجعل من حياة الإنسان معنى مادياً بعيداً عن الروح، بل يريد أن يوجد التمازج الحيّ بين الروح والمادّة، في وحدة رائعة تنسجم مع اتصال الجانب الروحي بالجانب المادّي في كيان الإنسان، ولم ترد للإنسان أن ينهزم وينعزل عن وجوده، في عملية هروبٍ سلبي، بحجّة الانقطاع إلى الله، والابتعاد عن المادّة، بل أرادت له أن يجعل من صلته بالله حافزاً إيجابياً، يدفعه إلى العمل من أجل تحقيق إرادة الله في بناء الحياة بشكل أفضل.

إنّ الدُّعاء قوّة إيجابية دافعة ومحفّزة للإنسان، كي يطوّر علاقته بالله والحياة على الدوام، بما يؤهّله لممارسة دوره الطبيعي في استخلاق الأرض وعمارتها، ولا يمثّل الدُّعاء الاتكالية السلبية العمياء، بل العمل بما أودعه الله من عناصر لدى الإنسان، تساعد على الحركة والفعل والتأثير.

فلنربّب أنفسنا على الدُّعاء إلى الله والانفتاح عليه بكلّ أوضاعنا وحاجتنا، بما ينفعنا ويعيننا على تصحيح حركتنا ومواقفنا، ويعبّر عن أصالة هويتنا ووجودنا. ▶